التمهيد

وردت لفظة (القصص) في القرآن الكريم في مواضع[1] منها قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]

وفي معاجم اللغة جاءت لفظة (قص) ((اتباع الأثر، ويقال خرج فلان قصصاً في أثر فلان، وقصاً، وذلك إذا اقتفى أثره. وقيل القاص يقص القصص لإتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقاً))[4].

وفي كتب التفسير جرى الربط بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي لهذه اللفظة مع الأخذ بقصد القرآن الكريم من قصصه، أو الأهداف التي يرمي إليها. قال الرازي في تفسيره الآية الكريمة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ ما يأتي: القصص إتباع الخبر بعضه بعضاً، وأصله في اللغة المتابعة. قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾[5] أي اتبعي أثره. وقال تعالى:

---

1 ينظر سورة هود: الآية ١٢٠ وسورة يوسف الآية ١١١ وسورة الكهف: الآية ١٣ وسورة غافر: الآية ٧٨.

2 سورة يوسف: الآية ٣.

3 سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

4 الفيروز آبادي: القاموس المحيط(مادة قص) فصل القاف باب الصاد، مصطفى البابي الحلبي، مصر.

5 سورة القص: الآية ١١.

﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾[1] أي إتباعاً. وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً[2]، فالرازي هنا يربط بين القصة والحكاية.

ويمكننا أن نجمل المعاني التي تتضمنها لفظة (قص)، فقد وردت في القرآن الكريم بمعنيين:

١ـ المعنى اللغوي للفظة (قص) تعني تتبع الأثر وتقصيه، كما في قوله تعالى: (وقالت لأخته قصيه) وقوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾.

٢ـ المعنى الاصطلاحي للفظة (قص) تعني الإعلام بالخبر أي تتبع الحدث شيئاً فشيئاً كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.

بعد هذا العرض يمكننا أن نتساءل هل القصة في القرآن الكريم قد استوفت عناصرها كاملة؟ القصة القرآنية ـ بالمنظار الاصطلاحي ـ يجب أن تكتمل عناصرها مثل: الحدث، والأشخاص، وطريقة العرض، والزمان، والمكان، والعقدة التي تدور حولها القصة، وقد وجدنا هذه القصة لا تتوافر فيها كل هذه العناصر، وهي إلى القصة القصيرة أقرب، وقد يذكر منها جزء أو أكثر. ولكن عدم توافر كل العناصر لا يخل بالقصة القرآنية، فالقرآن الكريم أحياناً قد يلمح إلى القصة تلميحاً، وقد يشير إليها معتمداً على شهرتها، ولا يقصد القصة لذاتها، وإنما يبتغي العبرة من عرضها، وقد يغفل قصداً عن تحديد الزمان والمكان، والتعريف بأسماء الأشخاص ولن يمس ذلك سلامة القرآن وصدقه، ولن يقلل من قيمة القصص القرآني.

ولذلك ـ كما يقول الدكتور التهامي نفرة: «لم يسم القرآن الكريم

---

1 سورة الكهف: الآية ٦٤.

2 الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)٢ / ١٨١ ط المطبعة المصرية، بولاق ١٣٨٩.

القصص (أخباراً)، لأنه لم يقدمها كما تقدم الأخبار المجردة خالية من التصوير الفني والآثار النفسية، ولم يسمها (حكايات)، لأنه لم يسردها كما تسرد الحكايات التاريخية في كتب التاريخ مجردة مما يأخذ الأسماع والقلوب من غوص على مكامن الشعور، وتشخيص للحادثة، وتنسيق في العرض، وإيقاع في الموسيقى اللفظية)).

لا شك أن القرآن الكريم قد أضاف بقصصه القرآني فناً إلى الفنون الأدبية وقد اختلف في طريقة عرضه لهذه القصة:

١ـ يعرضها كاملة في سورة كاملة مثل قصة يوسف.

٢ـ يعرضها متفرقة في سورة متفرقة مثل قصة آدم وإبراهيم وموسى وعيسى.

٣ـ يعرضها مرة واحدة أو عدة مرات بصورة إشارات أو إلمامات مثل قصة ذي الكفل وإلياس واليسع وعزيز وغيرهم. وهذه الطريقة الأخيرة قد ألجأت كثيراً من المفسرين إلى التأثر بقصص أهل الكتاب، أو ما يطلق عليه بـ (الإسرائيليات). وظهرت جماعة من القصاص الذين يجلسون في الطرقات أو المساجد، ويستمع إليهم المارة أو المصلون، وكانت تغلب على قصصهم مسحة خيالية أو أسطورية.

ويمكننا أن نتساءل هل استمد الشعراء القصص القرآني في شعرهم من هؤلاء القصاص المنتشرون، أم أنهم أخذوا القصة مباشرة من القرآن الكريم؟

بعد دراسة القصص القرآني في الشعر الأندلسي وجدنا قصصه تكاد تخلو من الاستطراد أو الزيادات فيها، ويمكننا أن نقول إن الشعراء الأندلسيين قد التزموا في أخذهم من القرآن الكريم، ووجدوا فيه مادة خصبة تغنيهم عن إضافات القصاص وزياداتهم لاسيما وإن بعض هؤلاء الشعراء كانوا من الفقهاء، وكانوا يعلمون أن أغلب هؤلاء القصاص

يتزيدون في قصصهم، ويضيفون من عندهم لإكمال القصة بقصد الترهيب والترغيب فيها، وكانوا يعلمون أيضاً أن المسلمين الأولين كانوا لا يحبذون رواية القصص أو سماعها، وذلك لأنهم يرون القصص بدعة، وأن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ومما يروى عن الحسن البصري: «أن أحدهم سأله قائلاً: أعود مريضاً أحب إليك أو أجلس إلى قاص؟ فقال: عد مريضك. فقلت أشيع جنازة أحب إليك أو أجلس إلى قاص؟ قال شيع جنازتك. قلت: وإن استعان بي رجل في حاجة أعينه أو أجلس إلى قاص؟ قال: اذهب في حاجتك»[1].

وينقل لنا أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف (٧٤٥ هـ) صورة طريفة لأحد القصاص في عصره، وهو يروي للناس روايات وحكايات غدا فيها واعظاً يحرك النفوس، فتارة يبكيهم خوفاً ورهبة من النار، وتارة يطمئنهم إلى مغفرة من الله، ورحمته التي وسعت كل شيء فيفرحون.

قال:

وراوي حكايـــــات لنـــــاس تقـــــدموا

غـــدا واعظـــاً يـــشدو وينـــشد مطربـــاً

وطـــوراً يبكـــي النـــاس خوفـــاً ورهبـــة

وطـــوراً يرجـــي بالتـــسامح مـــذنباً

ثم ينتهي محذرا الناس أخذ دينهم عن مثل هؤلاء الغواة:

أتأخـــذ ديـــن الله عـــن مثـــل هـــؤلا

لأنـــت إذن في الغـــيّ أصـــبحت مـــسهبا

---

1 المكي: قوت القلوب ٢١/٢ ط المكتبة الحسينية، القاهرة ١٣٥١ هـ ١٩٣٢م.

ولكن هذا لا يعني الامتناع من التحدث بقصص القرآن الكريم، وإنما يعني الحذر من الزيادة فيها، فقد روي "أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتحدث بحديث أم زرع وغيره، وما جرى في جري الجاهلية، وحكى عجائب الإسراء والمعراج" وقد نالت قصة الإسراء والمعراج شهرة واسعة، وأثرت في آداب الأمم الاخرى، ولعل أهم عمل قام به المستشرق الإسباني آسين بلاثيوس في الانتصاف للفكر الإسلامي وأثره في الآداب الأوربية كتابه (الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية) الذي نشره أكثر من مره في مدريد، كان آخرها سنة ١٩٦١ م.

«لقد ظل الأوربيون يضعون دانتي وملحمته المعروفة بالكوميديا الإلهية موضعاً رفيعاً من التقديس والتكريم. وقد ظنوا أن فكرة الملحمة ونسجها من بنات أفكار دانتي، وما أن نشر آسين بلاثيوس كتابه هذا حتى بدأت مكانة دانتي تنزلق من عليائها، وأخذت ملحمته ـ برغم سحر أسلوبها ـ تتجرد من أصالتها وتتعرى من قدسيتها.

فقد أثبت بلاثيوس أن الملحمة مأخوذة فكرة وتخطيطاً من معجزة الإسراء والمعراج. لقد أثبت بلاثيوس نظريته من وجوه عديدة. ذلك أن البداية وتشابه المواقف، وتسلسل الأحداث كلها واحدة في كل من الإسراء والمعراج من ناحية وفي الكوميديا الإلهية من ناحية ثانية»[1].

وهكذا يظل القصص القرآني مناراً ينير السبيل إلى الإيمان بالله تعالى ووسيلة لتوجيه النفوس إليه حتى تظهر عليها آثار التوحيد في النية والعمل والتصور والسلوك.

---

1 د. مصطفى الشكعة: مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية في الأندلس ١٢٨٥/٢ (بحث ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية) مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج. الرياض ١٤٠٥هـ \١٩٨٥م.